الهيئة العامة لقصور الثقافة
الإدارة المركزية لإقليم القاهرة الكبرى
وشمال الصعيد الثقافى

المؤتمر الأدبى الثالث عشر

لإقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد الثقافى

الثقافة المصرية والوعى الثورى

كتاب الأبحاث

قاعة المؤتمرات بمركز التنمية بمدينة القناطر الخيرية بمحافظة القليوبية

خلال الفترة من ٢٣ : ٢٥ مارس ٢٠١٣ م

الشخصية المصرية وجدلية التغيير
بين الخضوع والثورة

أ. عـز الديـن نجيـب

يخطىء من يظن أن الشخصية المصرية مركب ثقافي محدد وثابت على مر الزمان ، فهي في الحقيقة كائن حي يتغير بتغير الظروف والأحوال إجتماعياً وقيمياً ، ولكنها ليست إنعاكساً ميكانيكاً لهذه الظروف ، بل إنها تتفاعل معها فتتأثر بها وتؤثر فيها ، تجدد أحياناً وتجمد أخرى ، وتبدو سلبية أوقاتاً وثورية أوقاتاً ثانية ، وبمثل هذه التغيرات المختلفة التي قد تحدث أحياناً بشكل مفاجيء وتدهش دائماً الدارس لها والمتعامل معها وتطيح بكل حساباته المنطقية ، وهى تقدم نموذجاً بشخصية تستعصى على التخطيط والتصنيف كحالة منفردة بين الشعوب ، قديمها وحديثها التاريخ القديم والحديث يعكس لنا حالات متناقضة بين الخضوع للحكام والثورة ضدهم ، بين الخوف والسلطة والخروج عليها بين الرضا بالمقسوم في علم الغيب او بالعهد المفروض بقوة الامر الواقع وبين الانتقاض لصنع قدرها وامتلاك مصيرها ، بين شدة التدين حتى الاستشهاد والتضحية في سبيل دينها والعمل لآخرتها وبين الإقبال المفرط على شئون الدنيا ومباهجها بقدر هائل من التسامح الديني ووسطية التدين بالجمع بين مطالب الحياة ومطالب الاخرة .

وكثيراً ما يكون الدين عنصراً سلبياً يؤدي إلي إمتثال المصري وقبوله بالظلم والقهر والتخلف ، إنطلاقاً من إيمان تاريخي شديد العمق تغذيه الطبيعة النهرية السمحة والدولة المركزية المستبدة باسم العقيدة الدينية وبتأثير الطبيعة المناخية المعتدلة والمعطاءة للخير ، بما يسمح للجميع ان يعين ويأكل ويأمن على نفسه وماله وأن يتعايش مع الاخرين في قناعة

وسلام ، وكثيراً ما يكون الدين — كذلك — حافزاً للشخصية المصرية نحو المقاومة الثورية في مواجهه المستعمرين ، ودافعاً إيجابياً ضد الطغاه — حكاماً او إقطاعيين — من أجل العدل والحرية والكرامة الإنسانية .

لكن ثمة صفة جوهرية لشخصية المصري عملت دائماً على مر العصور والنظم الحاكمة على تأكيد هذه الهوية بجانبها الإيجابي وهي قوة الإنتماء للأرض والوطن .. لقد التصق المصري بوادي النيل الآف السنين لا يغادر أرضه ولا يرضى عنها بديلاً ، وتكونت من خلال هذا الإلتصاق ثقافة جذرية وحضارية كان الدين أحد عناصرها وكانت الطبيعة منهلاً لقيمها لقد وفرت له الطبيعة مناخاً معتدلاً وفصولاً زمنية منتظمة وجدول مواعيد ثابت للزراعة والري والحصاد ومن القوانين وتعلم الحساب والتأمل فعرف الله وعبده ، وبنى معبده وكنيسته ومسجده ، وبطمى النيل بنى بيئته وعرف قيمة الحوار وثقافة القبول بالآخر وضرورة التضامن والمشاركة مع جيرانه في البناء الجماعي للمنزل ، ومن خامات البيئة وبمنتجات الزرع والحصاد صنع كساءه وأدواته وضرورات حياته اليومية وبكده وعرقه أنتج محاصيله وباع ما يفيض عن حاجته ، فزوج أبناءه ووسع أرضه ما أستطاع إلي ذلك سبيلاً ، وفي كتاب القرية حفظ قرآنه وتعلم أن يقرأ ويكتب ويحسب ، ووسط ذلك المناخ من الرضا بالواقع والقبول بالحاكم حينما يكون عادلاً — أنجز إبداعاته الثقافية والحضارية وفنونه الشعبية فكانت تعبيراً عن قيمه وحياته وعوناً له على مواصلة العطاء واستمرار الحياة وكانت ترجمة لقيم الإيمان والأخلاق والعمل والحب والتضامن والتسامح

والعطاء ،بل عن التكامل والتعاون بين أصحاب الأديان المختلفة.. وذلك أن إنتماء المصري للوطن كان يأتي قبل الإنتماء الديني أو الطبقي أو العرقي.

من جانب آخر كان هذا الإنتماء أو الإلتصاق بالأرض وبالموروث الثقافي يمثل لدى المصري في كثير من الأحيان عنصراً سلبياً في عملية تقدمه وتطوره، بما يؤدي إليه من تكيف مع الواقع ، وما يفرض عليه من قهر وظلم وإستبداد ، وبما يمثله من ثقافة التسليم بما أراده الله له ، وبما يوفره النيل من رزق ميسر ، وبما توفره الجماعة الشعبيه المتماسكة من تضامن معنوي وتكافل إجتماعي ، وفي مثل هذا المناخ تزدهر أنماط الفكر الغيبى والأسطوري ويزيد الإنغماس في عالم السحر والخرافة والشعوذة باسم الدين، وتسود الأمثال والحكم الشعبية المحرضة على التواكل والإنتظار للعدل والخلاص على أيدي الأولياء والقديسين ، وتغيب روح المخاطرة بالخروج على الحاكم بإسم الإسلام ، ويتم الحض على الصبر أملا في حتمية العدل الإلهي ، كما تتعالى الأمثال التي تبرر الأنانية بل تحض عليها ولو أدت إلي دهس الآخرين من أجل المصلحة الفردية او النجاه بالنفس .. وكان من شأن هذا كله أن يسيد نمطاً ثقافياً يكرس للتخلف ويؤدي إلي التكيف معه والإبتعاد عن المخاطرة والنقد والمواجهة لعوامل هذا التخلف ، كما يؤدي إلي غيبة ثقافة الإبتكار والتحديث والإستقلال .. والخلاصة في النهاية هي تكوين عقل عام جمعي للشعب لا يقبل التغيير ولا يسمح بنمو روح الإستقلال أو بظهور نوازع التفرد والمبادرة .. هذا العقل الجمعي الإنقيادي

تعمل على بقائه واستمراه جميع الأنظمة الإستبداية ، لأنه الأنسب لحكم أي شعب .

لكن هذا الإنتماء بدأ يتخلخل في شخصية المصري في الربع الأخير من القرن الماضي ، تحديداً مع عصر الإنفتاح الإقتصادي عام ١٩٧٥ ، لقد أهتزت في ذلك العصر قيم المواطنة بعد أن فقد المصري شعوره بالأمان ليومه وغده ، ووجد أن ثمار إستشهاد أبنائه في حرب أكتوبر ١٩٧٣ وثمار سنوات البناء والتنمية الإقتصادية في عصر عبد الناصر قبل الحرب قد صبت في خزائن من لا يستحقها ومن لم يعمل في سلبيها لقد خرج مئات الألوف من الشباب من حرب أكتوبر ودماء رفاقهم تخضب رمال سيناء ومدن القنال التي شرد أبناؤها ست سنوات منذ سنة الهزيمة بعد إخلائها لدواعي حرب الإستنـزاف ، وليجد الجميع أنفسهم في العراء ، بلا عمل ، بلا سكن ، بلا أمل ، ومن حولهم (هبيشة) عصر الإنفتاح يرتعون ويحولون البلاد إلي غابة ، البقاء فيها للأقوى سلطة ، والأكثر مالاً أو نفاقاً ، والأدنى كفاءة وأخلاقاً .

إختل ميزان العدل الإجتماعي وسلم القيم الأخلاقية ، سادت ثقافة (أنا وبعدي الطوفان) وثقافة (أنا مالي) غاب الحلم بمشروع قومي مشترك، ورحل محله الحلم الفردي بالثروة أو بالخلاص بأي ثمة وأية وسيلة ، وظهرت بوادر الفتنه في هذا المناخ هو الهجرة من الوطن إلي دول النفط العربية أو الشتات في العالم ولأول مرة في تاريخ المصريين تنقصم العروة الوثقى بينهم وبين أرضهم فيهاجرون منها بالملايين ، يتفرقون بين

ليبيا والعراق ودول الخليج ، ومن كافة الطبقات : فلاحين ، عمال موسميين ، حرفيين ، ومدرسين ، محاسبين ، مهندسين ، وصولا إلي الباحثين والعلماء والخبراء وأستاتذة الجامعات ، وما أكثر من فقدوا حياتهم منهم في بعض تلك البلاد ، لقد ذهبوا سعياً وراء الرزق ، فعادوا محمولين في توابيت ضحايا لحروب إقليمية ومطامع دكتاتورية لاناقة لهم فيها ولا جمل .. كان ذلك تجريفاً عميقاً ومروعاً للوطن ، والأكثر ترويعاً هو تآكل جدار المناعة في صدورهم لفكرة المواطنة وما تتضمنه من مسئولية عن الوطن ، حيث لم يبق هناك الحد الادنى من مقوماته : البيت والرزق والعمل والكرامة ، بل حتى العبادة تعرضت للتمييز والإضطهاد ، بعد ان مكنت نظم حكم السادات ومبارك لتيار التعصب الديني ليقمع أصحابه شركاءهم في الوطن من الدين الآخر ، فأنكروا عليهم دينهم وحرموهم من حقهم في بناء كنائسهم وكنتيجة طبيعية لكل ذلك ، تلونت أوجه الثقافة الشعبية بقيم المرحلة بعد أن امتدت لأكثر من ٣٠ عاماً ، فسادت مظاهر الفهلوة والإنتهازية والخطف والنفاق والبلطجة واللامبالاه بالشأن العام ، وسيطرت على الساحة الثقافية أنواع الفنون التجارية الهابطة في السينما والمسرح والموسيقى والغناء والصحافة والنشر والفنون التشكيلية وغيرها ، وفي المقابل : زاد الإندفاع لمحاكماة الفنون والثقافة الغربية ، فتآكل طابع الهوية المصرية الذي تميزت به الثقافة طوال القرن الماضي ، وأصبح ميعاد الحداثة والتقدم هو مدى الأخذ والتمثل بالمدارس الفنية والأدبية في أوروبا والغرب عامة بدون مواءمتها مع طبيعة ومزاج المواطن المصري ، الذي ازداد

إنعزالاً عن الثقافة والمثقفين وعن السياسة والسياسين ، ودخل في حالة من الإحباط الذي إنتهى إلي نوع من اللامبالاه والوبائية جعلته يفقد الإنتماء والإهتمام بكل ما يخص الشأن العام وقضايا الوطن بل يستهين بما يراه من بيع لأصول البلد ومكتسبات الشعب ، ومن تغول لمظاهر الفساد والتخريب وكانه يعيش في بلد اجنبي لا يمت اليه بصلة .

ولا ننس أن هناك علاقة جدلية بين الجهل والأميه والحرمان الثقافي ، وبين تصاعد الإستبداد من جانب السلطة ، لان مناخ الجهل والأمية مع تفاقم الفقر ينتج بالضرورة غياب الوعي المعرفي والسياسي وإفتقاد القدرة على الإختيار ، ويعمل على مزيد من إستئناس المواطنين ومن وقوف عقولهم ومطالبهم ، عند مطالب الحد الأدنى اللازمة لاستمرار الكائن الإنساني ، أو تحديداً للنصف الأسفل منه ، فيبيت أقرب إلي عقلية القطيع الذي يقاد إلي حيث يشاء راعيه ، سواء كانت سلطة سياسية أو مؤسسة دينية تستعين بموروثها البالي من التفسير العقيم للدين ، الذي يصب بدوره في خدمة النظام الحاكم .

وقد (إستقالت) مؤسسات الدولة الثقافية والإعلامية من مسئوليتها عن مواجهة هذه الحالة السائدة من التجريف الثقافي ، بل كانت عاملاً مساعداً في زيادتها ، إما بإشاعة ثقافة التسلية والتهريج والتفاهه أو بالمسلسلات التليفزيونية الفكاهية و المليودرامية التى ساهمت في حالة تغييب الجمهور عما يشعره بالإنتماء وعما يوقظ وعيه ، وإما بتبني ثقافة وفنون النخبة المنعزلة تماماً عن المجتمع في مساحة ٢ كيلو متر مربع بأرض

الجزيرة ، حيث توجد دار الأوبرا والمجلس الأعلى للثقافة وبعض قاعات الفنون التشكيلية والفرق الموسيقية والمسرحية والغنائية التي يرتادها أصحاب الياقات العالية ورابطات العنق الإجبارية ومعاطف الفراء الفاخرة ومستخدمو العطور الباريسية ، وقد يرتادها — في الجانب التشكيلي — دارسو الفنون والمشتغلون بها ، إما بالإغراق في سياسة المهرجانات الدعائية باسم الفن والأدب والتجريب المسرحي والتشكيلي ، مواكبة لموضات العصر في الغرب الرأسمالي والعولمي ، فتستهلك النصيب الأكبر من ميزانيات وزارة الثقافة ، وفي صباح اليوم التالي لإفتتاحها لا تجد لها اثر يذكر .

ولم تسلم هيئة قصور الثقافة من هذا التجريف الثقافي ، بل كانت الخائن الأكبر لرسالتها تجاه الجماهير العريضة المحرومة من الثقافة في كل أنحاء الوطن ، لقد فقدت بوصلتها في التوجه نحو الشعب ، وفقدت روح الإبداع لخلق أليات جديدة للتواصل مع الجماهير ، وإندفعت تقلد

بل تنافس — المؤسسات الثقافية الأخرى فيما تقوم به من أنشطة لا تهم إلا شريحة ضيقة من مثقفي القاهرة وبعض عواصم المحافظات ، ولا تلبى من إحتياجات الجماهير إلا أكثرها ضحالة وتفاهة وإبتعدت عن أصحاب الخبرات الثقافية التاريخية منذ تأسيسها ، وأحلت محلهم — بنظام الترقي البيروقراطي قيادات ورقية غير مؤهلة فكرياً فضلاً عن إفتقارها إلي الدافع الداخلي لنشر رسالة ثقافية ، إنما ينحصر همها في الصراع على المناصب والفوز بالمكاسب وإغراق الهيئة بالاف الموظفين من أقاربهم ومحاسيبهم العاطلين عن العمل والمواهب والوعي معاً ، وفي أحسن

الأحوال كانت تكتفي بإقامة المهرجانات الأدبية والمؤتمرات الجوفاء وتلتهم الميزانيات الطائلة بغير طائل ، فأصبحت مثل ديناصور هائل الحجم ضئيل الرأس بطيء السير كالكسيح وهو في طريقه إلي الإنقراض ، وأصبح من قبيل الفلكور الحديث عن قوافل الثقافة التي كانت تجوب القرى والنجوع والاحياء الشعبية في الستينيات ، حاملة مشاعل الوعي والتنوير ومنصات المسرح والشعر والفنون الرفيعة إلي أبناء الشعب من المحرومين من الزاد الثقافي .

هذا هو المشهد الثقافي العام في مصر عشية ٢٥ يناير ٢٠١١ .. حالة من التبلد وغياب الوعي والإنفصال الشبكي للثقافة عن الجماهير .. نخبة ثقافية منعزلة داخل همومها الذاتية ، لانها لا تملك برجاً عاجياً تقيم فيه ، فهي مهمشة على حافة المجتمع لا تحظى بإهتمام يذكر ، او تجلس في لجان يحدث أعضاؤها بعضهم بعضاً دون غيرهم بمبنى المجلس الاعلى للثقافة ، فيما يتخلق تحت سطح الواقع وعي جديد لدى شرائح من الشباب وقادة المنظمات الحقوقية والمنظمات الاهلية ، يحاولون إيقاظ وعي الجماهير في وقفات إحتجاجية لأول مرة منذ عشرات السنين على المشهد السياسي والثقافي بمصر .. كان هؤلاء الشباب والناشطون الحقوقيون والسياسيون هم الخمائر الأولى لإنفجار ٢٥ يناير خاصة عندما التحم هذا الوعي بحركة شباب الفيس بوك ذات الخبرة الإلكترونية الآتية من عصر التكنولوجيا ، وإن تكن غير مسلحة بأكثر من وعي إحتجاجي على أوضاع

الفساد المتفشية وإدراك لحقوق المواطنة والعدل والحرية والكرامة ، بدون عمق أيديولوجي أو استراتيجي يقود مرحلة ما بعد الإنفجار .

وها نحن اليوم — بعد أكثر من عامين على الثورة — ندور في نفس الدائرة المغلقة لأنها ثورة منـزوعة الثقافة ، فبعد أن تحقق بإمتياز معنى المواطنة والمشاركة الإيجابية للشعب في إسقاط النظام في الإيام الـ ١٨ الأولى للثورة تحولت إلي مجرد حالة ثورية ـ، ثم إستمرت هذه الحالة في الشعوب ، لأن الجماهير التي تفتقر إلي الوعي الثقافي والثوري لم تجد لها دوراً إلا التظاهر والإعتصام في الميادين ، أو الإحتكام إلي صناديق الإنتخاب كمظهر للديمقراطية ، وفي غياب الوعي الذي أشرنا إليه أتت الصناديق بفصيل ديني قام بتأميم الثورة لحسابه وضرب برفاق الثورة وأهدافها عرض الحائط ، فقبعت الجماهير في إنتظار أن يحقق النظام الديني المنتخب المبادىء والأهداف التي قامت من أجلها الثورة ، وعندما لم يتحقق منها شيء عادت الجموع الغاضبة إلي (كنباتها) المنـزلية مصابة بالإحباط كما كانت وإن بقيت طلائعها الشابة في الميدان معبرة عن غضب ، كان رد فعل متوقع لإستخدام العنف ضده من السلطات الجديدة التي سرقت الثورة ، في غياب الحركة السياسية الناضجة والقادرة على تولى زمام المبادرة والقيادة، وقد أدى هذا العنف السلطوي إلي عنف مضاد من المتظاهرين كاد أن يتحول إلي ظاهرة مفزعة عملت على تحول الإحباط والإكتئاب والنكوص لدى ملايين المواطنين إلي حالة السلبية القديمة .

عصب المشكلة إذن هو غياب الوعي الثقافي والثوري لدى القاعدة العريضة من أبناء الشعب ، صحيح أن بوادر إيجابية قد ظهرت في الأيام الأولى للثورة ، تنم عن وعي جديد لديهم بمسئوليتهم عن التغيير وتخليهم عن السلبية في مواجهة الأوضاع القديمة التي أنتجت بعد الثورة — بالتالي — أوضاعاً مشابهة لما كان عليه الوضع قبلها ، حتى شعروا بأنهم أسياد في وطنهم وأنهم عرفوا أصل الداء وكيفية إستئصالة / وحققوا في أيامها الأولى حكمة (الكل في واحد) لكن هذه المشاعر لم تجد المناخ المناسب لنضوجها وتحولها إلي قناعة فكرية بأن الثورة إقتلاع للشجرة الفاسدة من جذورها ، فأستمرت جذور النظام القديم من ناحية وقفزت على الثورة قوى اخرى لا تؤمن بأهدافها ومطالبها . وكل همها السيطرة والتمكين لجماعتها كبديل لبقايا النظام القديم ، وإن كانت تمارس نفس سياساته ، والمدهش انها جاءت بواسطة الديمقراطية عبر صناديق الإنتخاب في ظل غياب الوعي وغلبة الجهل والجوع ... وتلك في الأساس هي أم القضايا ، إذ لا تملك قوى الثورة مفاتيح العمل لتغيير الوعي المشوه للجماهير لمساعدتها على التحول الثقافي والسياسي ، وهي عملية طويلة تستغرق — من منظور التغيرات الثقافية سنين عديدة .. وربما أجيالاً ...